المحاضرة السادسة (06): مفهوم النثر في التراث النقدي

مفهوم النثر:

جاء في كتاب العين للخليل؛ نثر: النَّثْر: رَمْيُكَ الشيءَ بيَدِكَ متفرِّقاً، ويقال: أَخَذَ دِرْعاً فنَثَرَها على نفسه، ويُسَمَّى الدِّرْعُ النَثْرةَ إذا كانت سلسلة المَلْبس. والنَّثْرةُ: الفُرجةُ التي بين الشارِبَيْن حِيالَ وتَرةِ الأنف، وكذلك هي من الأسَد. والنَّثْرةُ: كوكب في السماء كأنَّه لَطْخُ سَحابٍ حِيال كَوكَبَين صَغيرين تُسَمِّيهِ العَرَبُ نَثْرةَ الأسد، وهو من منازل الشمس والقَمَر. وهو في علم النجوم من بُروج السَّرَطان. والنُّثارةُ: فُتاتُ ما يَتَناثَرُ من الخِوان ونَحوِه –

والنَّثْرة للدَّوابِّ: شِبْهُ العَطْس للناس. والإنسان يَسْتَنْثِرُ إذا استَنْشَقَ، ثمَّ استخرَجَه بنفس الأنف. وامرأةٌ نَثُورٌ: كثيرةُ الوَلَد، ويقال للرجل يَجَأُ بَطنَ الآخر بالسِّكِّين: قد نَثَرَ أمعاءَه. وقال ابن منظور: «النثر: نثرك الشيء بيدك = ترمي به متفرقا» قال المتنبي:

نَثَـــرَتْهُمْ فَـــوقَ الأحَيْـــدِبِ نَثْـــرَةً كمـــا نُثِـــرَتْ فـــوق العَـــرُوسِ الـــدَّراهِمُ

والناثر: هو الذي يكتب النثر

أضرب النثر: العادي والفني

الضرب الأول فهو النثر العادي يقال في لغة التخاطب، وليست لهذا الضرب قيمة أدبية، إلا ما يجرى فيه أحيانا من أمثال وحكم، وأما الضرب الثاني، فهو النثر الفني الذي يرتفع فيه أصحابه إلى لغة فيها فن ومهارة وبلاغة، وهذا الضرب هو الذي يُعنى النقاد في اللغات المختلفة ببحثه ودرسه، وبيان ما مر به من أحداث وأطوار، وما يمتاز به في كل طور من صفات وخصائص.

أقسام الكلام ثلاثة؛ محادثة ومخاطبة وكتابة:

(المحادثة) إما حديث يدور بين بعض الناس وبعض في إصلاح شؤون المعيشة. واجتلاب ضروب المصالح والمنافع وذلك ما يسمى أو "لغة التخاطب". (الخطابة) خطاب من فصيح نابه الشأن يلقيه على جماعة في أمر ذي بال. فيه إقناع وتوجيه (الكتابة) كلام نفسي مدلول عليه بحروف ونقوش لإرادة عدم التلفظ به. أو لحفظه للخلف. أو لبعد الشقة بين المتخاطبين.

أساليب النثر (المرسل/ المسجوع):

أقسام النثر المذكورة أعلاه، إما أن تكون: نثرا مرسلا: وهو الكلامُ الخالي من التزام التقفيه أو السجع في أواخر عباراته نثرا مسجوعا: وهو ما كان قطعاً ملتزماً في آخر كل فقرتين منها أو أكثر قافية (سجعا) واحدة. وهو نوع من الحلية اللفظية إذا جاء عفواً ولم يتعمد التزامه، ولحسن وقعه في الأسماع، وحوكه وتأثيره في الطباع كان أكثر ما يستعمل في الخطابة، والأمثال، والحكم، والمفاخرات، والمنافرات.

الفرق بين النثر العلمي والأدبي:

لوحظ أن لغة النثر العلمي هي العقل؛ ولغة النثر الأدبي العاطفة، وعلى هذا الفرق الأساسي قامت أوجه الخلاف بين أسلوبيهما: الأسلوب العلمي: يقوم على العقل، ونشر الحقائق الفكرية، والمعارف العلمية والفلسفية وليس يخلو من العاطفة إلا أن تكون الأرقام الحسابية، والرموز الجبرية، والعلمية. ومن اهم صفاته الوضوح؛ ونذكر من انواعه: المقالة، والتاريخ، والسيرة، والمناظرة.

الأسلوب الأدبي: وأما النثر الأدبي فيمتاز بقوة العاطفة التي تؤثر في عباراته تأثيرًا واضحًا يبدو في الكلمات والصور، والتراكيب، وليس معنى ذلك خلوه من الأفكار القيمة والحقائق المبتكرة؛ فهي تعتمد على العنصر العقلي مهما تتوسل بقوة الشعور، وجمال التعبير، نجد ذلك في الرواية، والرسالة، والخطابة، والوصف والمقامة ونحوها. وإذا كان الوضوح هو الصفة الأصلية في الأسلوب العلمي. فهو هنا لازم كذلك للأسلوب الأدبي مع صفتي القوة والجمال.

آراء النقاد في المفاضلة بين الشعر والنثر

✓ الكلام الذي لا يتقيد بوزن وقافية، هو أساس الكلام وجله قال ابن وهب والمنثور هو الكلام وعرفه ابن سنان بحد الكلام فقال: «الكلام عندنا ما انتظم من هذه الحروف التي ذكرناها أو غيرها» وقال ابن خلدون: «هو الكلام غير الموزون» ووضعه أكثر النقاد إزاء النظم وقد يطلق عليه اسم المنثور والنثير؛ الذي وضعوه إزاء المنظوم النثر هو الأصل في الكلام، ولم تتكلم العرب أولا إلا به والنثر أسبق من الشعر، ولم يصل عن العرب القدماء إلا القليل منه، وقد قيل في العمدة لابن رشيق: «ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من المنظوم عشره»

✓ النثر يستعمل في أغراض محدودة، وتوسع العرب فيه، فأصبح أولوانا كثيرة، وقد قسمه ابن وهب إلى خطابة وترسل واحتجاج وحديث

✓ نافس النثر الشعر بهذا التوسع، وأصبح يعبر عن مختلف الفنون والأغراض، وسلب الشعرَ كثيرا من أغراضه وفنونه

✓ رأى أبو حيان التوحيدي أنّ منشأ المفاضلة بين الشعر والنثر فلسفي الطابع، ولاحظَ أنّ الذين يُفضّلون الشعر على النثر أكثر من الذين يفضّلون النثر على الشعر، وعرض لآراء نقّاد من الفريقين، وللحجج والبراهين التي يسوقونها لتأكيد صحة ما يرون

✓ فالذين يُفضّلون الشعر يُفضّلونه من أجل أبرز مزيّة فيه؛ وهي الوزن، كأبي سليمان المنطقي الذي يرى أنّ النظمَ ممَّا تتقبّله النفس أكثر ممّا تتقبل النثر؛ ذلك لأنّ "النظم أدلُّ على الطبيعة، لأنّه من حيّز التركيب، والنثر أدلُّ على العقل، لأنّ النثر من حيّز البساطة، وإنّما تقبلنَا المنظوم بأكثر من تقبُّلِنَا المنثور لأنّا للطبيعة أكثر منّا بالعقل، والوزن معشوقٌ للطبيعة والحس

✓ أما الجاحظ فيُفضّلُ الشعر على النثر، ويجعلُ مقاييسه مصدراً لقياس النثر، وهذا ما قرأه الدكتور عبد السلام المسدّي في مجمل نقد الجاحظ، وأوجزهُ قائلاً: "الجاحظ يكاد يجعلُ من الشعر رمزاً للخلق الأسلوبي الأوفى

✓ والمُظفّر بن الفضل العلوي كتبَ "نضرة الإغريض في نصرة القريض"، وفيه يفضل الشعر يقول: "ومن فضيلة الشعر أنّ الكلام المنثور وإنْ راقت ديباجته، ورقّتْ بهجته وحَسُنَتْ ألفاظه، وعَذُبَتْ مناهله إذا أنشده الحادي، وأورده الشادي، ومدَّ به صوته المُطربْ، ورفعَ به عقيرته المنشد، لا يُحرِّكُ رزيناً، ولا يُسلّى حزيناً، ولا يُظهرُ من القلوب كميناً، ولا يُخَوِّنُ من الدمع أميناً، فإذا حُوِّلَ بعينه نظماً، ووُسِمَ بالوزن وسماً، ولج الأسماع بغير امتناع

✓ والقلقشندي: قارنَ بين المنظوم والمنثور، وفضّل المنثور، على الرغم من مزايا النظم وفضائله المتعدّدة؛ فإنّ النثر حسب رأيه "أرفع درجة وأعلى رتبةً وأشرف مقاماً وأحسن نظاماً". ويوردُ براهينه قول الإمام عليّ - كرم الله وجهه -: «قيمةُ كُلّ امرئٍ ما يُحسنه»

✓ والمرزوقي: ذكر الأسباب التي أوجبت تأخّر الشعراء عن رتبة البلغاء، كما أوجبت أن يكون النثر أرفع شأناً من الشعر؛ وهي: "الأول: أنّ ملوك العرب قبل الإسلام وبعده كانوا يتبجّحون بالخطابة والافتنان فيها، وكانوا يأنفون من الاشتهار بقرض الشعر، ويعدُّه ملوكُهم دناءة، الثاني: أنهم اتخذوا الشعرَ مكسبةً وتجارة، والثالث: أنّ الإعجاز القرآني والحديث النبوي وقعاً في النثر دون النظم

✓ يرى العسكري أنّ "المنظوم مثل المنثور في سهولة مطلعه، وجودة مقطعه، وحُسن رصفه وتأليفه، وكمال صوغه وتركيبه؛ لأنّ الكلام يحسُن بسلاسته، وسُهولته، ونصاعته، وتخيّرِ لفظه، وإصابة معناه، وجودة مطالعهِ، ولينِ مقاطعهِ، واستواء تقاسيمه، وتعادل أطرافه، وتشبُّهِ أعجازه بهواديه، ومآخيره لمباديه(16)"ويرى - أيضاً - أنّه "لا يحسن مَنثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجاً

✓ أ مّا حازم القرطاجني فيُشبِّه بناء النثر ببناء الشعر؛ فبناء الشعر يبدأ بالأبيات، فالفصول، فالقصائد، وهذا يُناظر في النثر بناء الحروف، فالكلم، فالعبارات. يقول: "اعلم أنّ الأبيات بالنسبة إلى الشعر المنظوم نظائر الحروف المُقطعَة من الكلام المؤلف، والفصول المؤلفة من الأبيات نظائر الكلم المؤلّفة من الحروف، والقصائد المؤتلّفة من الفصول نظائر العبارات المؤلّفة من الألفاظ. فكما أنّ الحروف إذا حَسُنَتْ حَسُنت الفصول المؤلّفة منها إذا رتبت على ما يجب كما أنّ ذلك في الكَلِم المفردة كذلك، وكذلك يحسُن نظم القصيدة من الفصول الحسان، كما يحسُن ائتلاف الكلام من الألفاظ الحِسَان إذا كان تأليفها منها على ما يجب

✓ ومن الذين يساوون بين الشعر والنثر أبو سليمان المنطقي، الذي يقول بتعادل فني الشعر والنثر، فلكلٍّ منهما فضائل ومناقب، ولكلٍّ منهما مثالب، ولإتقان كل فنٍ منهما هنَاك شروط، يقول: "وللنثر فضيلته التي لا

تُنْكَر، وللنظم شرفه الذي لا يُجْحَد ولا يُسْتر؛ لأنّ مناقب النثر في مقابلة مناقب النظم، ومثالب النثر في مقابلة مثالب النظم، والذي لابُدّ منه هو السلامة والدقّة، وتجنب العويص، وما يحتاج إلى التأويل والتخليص"

✓ أبو حيّان التوحيدي أيضاً يتبنى فكرة المساواة بين الشعر والنثر، إلى درجة المطابقة في الأهمية، والتوحيد في الأداء الفني، فالنظم والنثر يحتاجان إلى الإتقان والجودة، وشدّة تقاربهما تتجلّى بوضوح أكبر في الإيقاع والمحاكاة، وهذا ما كان يغلب على نثر القرن الرابع، ويُعبّر التوحيدي، عن هذا التقارب بالقول: "خير الكلام ما قامت صورته بين نظم كأنّه نثر، ونثر كأنّه نظم، يطمع مشهوده بالسمع، ويمتنع مقصوده على الطبع

نتائج

✓ المقارنة بين الشعر والنثر قضية أفرزتها مستجدات ثقافية، شهدها العصر العباسي، فقد وُلِدَ فنٌّ جديد هو فن الكتابة، الذي أتقنه كُتّابٌ مجيدون، ونافسَ النثرُ الشعرَ، والكاتبُ الشاعرَ، في ظلّ ظروفٍ سياسية وفكرية، ولم يعد الشعر - وحده - يستوعبُ ضروبَ الجدل والحوار والتناظر، التي استجدّت حول قضايا عقليّة، وصوفيّة، وفلسفيّة.

✓ إنّ قراءة النقد المُوجّه للشعر، والنثر، تكشفُ عن كون القواعد النقدية مشتركة في دراستهما معاً؛ فقواعد البلاغة التي تنطبق على الشعر تنطبق على النثر أيضاً، ويرى قدامة بن جعفر أنّ البلاغة مفهومٌ ينطبق على النثر، والشعر معاً.

✓ على الرغم من الاهتمام النقدي المُوجّه للنثر. ظلّ نقد الشعر طاغياً، كان نقد النثر موسوماً بضآلة حجمه، غيرَ مواكب لتطور النثر العربي الذي تناسب طرداً مع تطور الفكر العربي وتجدّده، بجوانبه العقلية، وخاصّة الفلسفية، والدينية، والأخلاقية، والوجدانية.

✓ حلّ النقد "القديم، والحديث" إشكالية المُفاضلة بين الشعر والنثر بالتوحيد بينهما، ومساواتهما جماليّاً؛ لأنهما لا يقفان على طرفي نقيض، بل يُكمّل أحدهما الآخر، ويقوم كل منهما بمهمته في الدرجة نفسها من الأهمية، فالفن السامي قد يكون شعراً، وقد يكون نثراً، فليسَ من نُقطةٍ حاسمة تحدّد نهاية الشعر وبداية النثر، أو العكس، وإذا كان ثمة خلاف بين الشعر والنثر، فهو خلافٌ كميٌّ وشكليّ، وليس خلافاً جوهريّاً.

حضور النثر في النقد العربي القديم - د. مسعود بن ساري